الفصل الثامن

الماسونية بين اليهود

الأنشطة الأولية:

بعد تأسيس الماسونية الجديدة فى بريطانيا «المحفل الإنجليزى الأعظم» بأحد عشر عاماً اتخذت أول خطوة لإنشاء محفل ماسونى فى مدينة كلكته من ولاية البنجال فى الهند، وقد عهد المحفل الإنجليزى بهذه المهمة فى ديسمبر ١٧٢٨م/ ١١٤١هـ إلى جورج پامفرت (George Pamfret) الذى قام بتعريف الإنجليز فى الهند على الماسونية، وطبقا لما كتبه (Masonic Year Book) كتاب الماسونية السنوى فقد أصبح هو نفسه أول أستاذ أعظم لولاية «الهند الشرقية». والمصادر الماسونية لا تعطينا معلومات كثيرة عن پامفرت ولكننا نعلم أن الكابتن رولف فارونتر (Ralph Farwinter) قد أخذ مكانه فى نفس المنصب فى سنة ١٧٢٩م/ ١١٤٢هـ وتحت رعاية هذا الأخير تم فى عام ١٧٣٠م/ ١١٤٣هـ تأسيس محفل جيوش الهند الشرقية (Lodge East India Arms) وتوجد بين أيدينا رسالة بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٧٣٣م/ ١١٤٦هـ تم فيها توجيه الشكر لرولف فارونيتر على خدماته والهدايا التى كان قد أرسلها إلى «المحفل الإنجليزى الأعظم»، وطلب من «المحفل الأعظم فى ولاية البنجال» أن يبحث عن آثار قديمة متبقية عن الماسونية القديمة التقليدية التى يمكن أن تكون موجودة فى الهند ويقوم بإبلاغها للمحفل الإنجليزى الأعظم وإطلاعه عليها(١).

ظل الإنجليز فى الهند يواصلون نشاطاتهم الماسونية بجدية ورغبة شديدة. ففى سنة ١٧٥٥م/ ١١٦٨هـ أصبح روجر داريك (Rǒger Darke)، الأستاذ الأعظم للماسونية فى البنجال، وبعد ذلك بعام واحد أصبح سراج الدولة حاكماً على هذه الولاية «نواب»(٢). وفى تلك الأثناء كان أحد أتباع سراج الدولة قد لجأ إلى انجلترا، ولأن الإنجليز لم يكونوا على وفاق مع «النواب» الحاكم لأنه كان قد قام فى البداية بالإغارة على «قاسم بازار» ثم «كلكته» بعد ذلك، تصاعدت الحرب بين الإنجليز وقوات سراج الدولة، واستطاع الإنجليز أن يحققوا النصر فى النهاية بسبب خيانة «مير جعفر» القائد العام لقوات «نواب سراج الدولة» ومنذ ذلك الوقت اعتبروا انتصارهم هذا بداية لسيطرتهم الفعلية على الهند(٣). وعندما تعرضت كلكته لهجوم من سراج الدولة، كان السيد دارك حاكماً عاماً عليها، وقد خاف على نفسه بشدة من هذه الأحداث فترك مقر عمله وهرب من كلكته فى إحدى السفن. وقد كتب «جولد» أنه على الرغم من أنه فى نفس

الوقت الذى استطاعت فيه القوات الإنجليزية بقيادة كلايف (Clive) وواتسون (Watson) أن تستعيد كلكته من سراج الدولة فى سنة ١٧٥٧م/ ١١٧١هـ كان هو نفسه موجوداً على مسرح الأحداث لكنه يستبعد أن يكون قد عاد إلى نشاطه الماسونى بعد هذا الهجوم(٤).

شارك فى هذه الأحداث التى اشتهرت باسم أحداث «بلاسى» - Plossey – حيث تحقق للإنجليز انتصارهم فى قرية عرفت بهذا الاسم – ماسونى نشط آخر يدعى «هولويل» - Holwell – حيث كان ضمن مجموعة من الإنجليز وقعوا أسرى فى أيدى قوات سراج الدولة، وبعد اطلاق سراحه من السجن – الذى كان يسميه «الحفرة السوداء» – Black Hole – استغل نفوذه وقام بتشييد نصب تذكارى على هيئة عامود من الحجر بارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر تخليداً لذكرى الأسرى الذين ماتوا فى هذا السجن، وفى نفس مكانه(٥). ومن الأفضل أن نذكر أن «هولويل» هذا هو نفس الشخص الذى كتب عن سجن «الحفرة السوداء» وضمن كتاباته أكاذيب وتلفيقات كثيرة وحاول بذلك أن يشوه هذه الفترة من تاريخ الهند. وطبقاً لما قاله اسبير (Spear) فإن القصص والحكايات التى تخلو من الحقيقة والتى كتبها «هولويل» عن هذه الأحداث كانت تدرس لتلاميذ المدارس وظلت طوال خمسين عاماً مصدراً لهؤلاء الكتاب الذين كانوا يريدون أن يكتبوا عن «التاريخ المقدس» للإمبريالية(٦).

وقد تزامن مع تنامى نطاق نفوذ شركة الهند الشرقية الإنجليزية وقوتها فى الهند أن أخذ نشاط الماسونية يزداد وينتشر بشكل أكثر فى هذه المنطقة، حيث أخذت تتأسس محافل ماسونية فى مختلف المدن. وتشير التقارير إلى أنه حتى سنة ١٧٧٥م/ ١١٨٩هـ كان قد تم إنشاء اثنى عشر محفلاً ماسونياً فى مدن جاندرناجو (Chanderangoe)، باتنه (Patna)، بوردوان (Pardwan)، داكا (Decca) ومرشد آباد (كما نشطت أيضا الماسونية الهولندية فى نفس الوقت)، ومن الواضح أن كبار المسئولين فى شركة الهند الشرقية الإنجليزية كانوا دائما هم كبار المسئولين فى الماسونية. وملكوا فى أيديهم المناصب القيادية فى هذا النشاط. وكان كالينج سميث (Calling J. Smith) الذى نعرفه كأحد الشخصيات الأولى التى شغلت منصب (الأستاذ الأعظم فى الولاية) فى محافل الماسونية فى الهند بعد أحداث ١٧٥٦-١٧٥٧م/ ١١٧٠-١١٧١هـ يشغل منصب مدير شركة الهند الشرقية. وجدير بالذكر أن الماسونى كان من ناحية يدعى أنه يتبع شعار الماسونية الشهير (الحرية، الإخاء والمساواة) – وهذا الشعار كان يعنى إنكار السلطة والتسلط والادعاءات الاقطاعية للكنيسة وأتباعها، ومن ناحية أخرى كان المسئول عن كنيسة سانت آن (St. Ann>s) ومديرها(٧).

وعلى هذا المنوال كانت الماسونية التابعة «للمحفل الماسونى الإنجليزى الأعظم» فى الهند تحاول أن تمتلك فى يدها جميع المحافل المادية والمعنوية فى هذه البلاد لكى تديرها فى إطار الاستغلال والانتفاعية الاستعمارية لشركة الهند الشرقية والإمبراطورية الإنجليزية وتمهد الطريق أمام خداع الشعوب الهندية لصالح أصحاب رؤوس الأموال الإنجليز، إلى درجة أنه

«طبقا لإحصاءات علماء الاقتصاد الهنود فإن بريطانيا استطاعت فى الفترة من ١٧٥٧م – ١٧٧١هـ إلى ١٧٨٠م/ ١١٩٤هـ أن تخرج من الهند ما يبلغ قيمته ٣٨ مليون جنيه إنجليزى من السلع والبضائع والمسكوكات»(٨).

ونضيف أيضاً أن جانباً من أموال الشعب الهندى كان يتم إرساله بشكل مباشر من المحافل الماسونية فى الهند إلى المحفل الإنجليزى الأعظم على هيئة مسكوكات ذهبية. وهذا فى حد ذاته يقوم كأحد الأدلة التى توضح الرغبة الشديدة لهذه المؤسسة فى تأسيس أفرع للماسونية الإنجليزية فى الهند. وهناك رسالة مؤرخة بتاريخ ١٧ مارس ١٧٧٧م/ ١١٩١هـ موجهة من محفل ولاية البنجال إلى «المحفل الإنجليزى الأعظم» ورد فيها أن الماسونية فى البنجال تعرب عن خجلها إزاء إرسال هذه المساعدة المالية القليلة إلى «المحفل الإنجليزى الأعظم» لكنها استطاعت أن ترسل إلى هذا المحفل الأعظم عشرة (مُهر) ذهبية للصدقات وعشرين (مُهراً) ذهبياً لتجديد وتزيين قاعة المبنى التابع «للمحفل الإنجليزى الأعظم». والمصادر المطلعة الخاصة بسنة ١٧٧٩م/ ١١٩٣هـ تشير أيضاً إلى أن المساعدات المالية من محفل البنجال إلى «المحفل الإنجليزى الأعظم» قد ارتفعت فى هذه السنة إلى مبلغ ٥١ (مُهراً) ذهبياً(٩). وكانت ولاية كرناتك (Karnatak) الواقعة فى جنوب الهند(١٠) مسرحاً لحروب وقعت خلال القرن الثامن عشر الميلادى بين انجلترا وفرنسا من أجل السيطرة على الأراضى الهندية، وقد تسببت هذه السلسلة من الحروب فى أن تكف الماسونية التابعة للإنجليز عن مزاولة نشاطها فى سنوات ١٧٨١-١٧٨٥م/ ١١٩٦-١٢٠٠هـ ومع هذا كله فإن فيليب ميلنر ديكرز (Philip Milner Dacres) رئيس المحفل الأعظم فى ولاية البنجال لم يجلس عاطلاً طوال هذه السنوات حيث كان من أوائل الأشخاص الذين طلبوا من القادة الإنجليز فى الهند أن يقوموا بتكوين فرقة عسكرية من «الوطنيين»(١١). وعلى أي حال فإن الماسونية التابعة للإنجليز فى الهند وقعت فى خلافات مع لندن على رئاسة «المحفل الأعظم فى ولاية البنجال» ودارت خطابات ومساجلات بين الطرفين حول هذه المشكلة ونتيجة لذلك لم يستطع هذا المحفل أن يقوم بنشاطه المنتظر منه فى البنجال. ولكن فى سنة ١٨١٣م/ ١٢٢٨هـ حدث أن تنامى نشاط الماسونية وانتشر فى البنجال(١٢).

الهنود الماسونية: عمدة الأمراء بهادر:

لقد ظهرت هذه الظاهرة التى أفرزها عصر التنوير فى أوروبا فى أرض الهند ربما قبل أن تعرضها أى دولة شرقية أو إسلامية أخرى ولكن يبدو أن عدداً كبيراً من الهنود أنفسهم لم يكونوا قد سجلوا أسماءهم بعد فى المحافل الماسونية حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وربما يكون من الأصح أن نقول إنه لم يسمح لهم بذلك. فالذين كتبوا فى تاريخ الماسونية فى الهند يؤكدون على أن «المحفل الأعظم فى ولاية البنجال» كان يمتنع طبقا لقانونه عن قبول عضوية أى شخصية آسيوية إلا بإذن من «الأستاذ الأعظم فى الولاية» وظل هذا القانون سارياً

حتى سنة ١٨٧١م/ ١٢٨٨هـ إلى درجة أنهم كتبوا أنه كان هناك «امتناع عام» يستند إلى أن الهنود ليس لديهم أصلا الأهلية للعضوية فى الماسونية وكان جوبتا الماسونى الهندى على اقتناع بأن «الأخلاق المخيرة فى المسيحية والإحساس بالطبقية لدى الإنجليز دفع الماسونية فى البنجال إلى الامتناع عن قبول الهنود فى الماسونية»(١٣) ومع هذا فإنه يبدو أن الهنود مسلمين وغير مسلمين – كانوا يريدون بروحهم الباحثة أن يتعرفوا على الماسونية من الداخل ومن هذا المنطلق كتب عبد اللطيف الشوشترى فى سنة ١٨٠١م/ ١٢١٦هـ أن «عظماء الهند بذلوا جهوداً فى استكشاف هذا الأمر والتعرف على كنيته. وطبقا لما قاله هموء «فإن كثيرا من المسلمين فى كلكته دخلوا ضمن هذه الطائفة»(١٤).

وربما يمكن القول بأن عدد الماسون المسلمين فى الهند خلال القرن الثامن عشر الميلادى لم يكن كثيراً طبقاً لما ذكره عبد اللطيف الشوشترى ولكننا نعرف على الأقل شخصية معروفة من المسلمين تم قبول عضويتها فى سنة ١٧٧٥م/ ١١٨٩هـ فى «محفل تريتشينبولى» (Trichinopoly Lodge) فى ولاية كرناتك. ولم تكن تلك الشخصية سوى عمدة الأمراء بهادر عمدة الأمراء بهادر، الابن الأكبر لمحمد على نائب ولاية كرناتك، وللتعرف على عمدة الأمراء بهادر وصلته هو وأسرته بالإنجليز فمن الأفضل أن نشير إلى أن محمد على نائب ولاية كرناتك هذا والذى كان قد حاز لقب «صاحب الجاه العالى» كان تحت حماية الإنجليز (Protégé) بناء على معاهدة باريس فى سنة ١٧٦٣م/ ١١٧٧هـ وأصبح معروفاً كحاكم لولاية كرناتك ودخلت مدينة ترتيشينولبولى – وهى مدينة تابعة لولاية مدراس – أيضا تحت حكمه(١٥). ولكن وكما كان يُنتظر لم يكن محمد على سوى أداة فى يد الإنجليز، ووجه سياسته وحكمه لأن تكون هذه الولاية جميعها تحت سيطرة الإنجليز وطبقاً لما كتبه كتاب التاريخ المطلعون فإنه بعد حرب ١٧٥٦-١٧٦٣م/ ١١٧٠-١١٧٧هـ «طلبت شركة الهند الشرقية من محمد على أن يقوم بدفع المصروفات العسكرية بما قيمته خمسة ملايين روبية. ولم يكن النائب محمد على يملك مثل هذا المبلغ وقام بعض العاملين فى الشركة بإقراضه هذا المبلغ، وحصلوا فى مقابل ذلك على امتياز بجمع الضرائب فى كثير من المناطق الواقعة تحت حكمه. وفى هذه المناطق أخذ عمال شركة الهند الشرقية فى جمع زيادات كثيرة على الضرائب المفروضة بناء على عمليات حسابية مغلوطة وحسابات مزورة، وقاموا بإقراض هذه الأموال بفوائد ضخمة لمحمد على»(١٦).

وفضلا على ذلك قام محمد على فى سنة ١٧٨١م/ ١١٩٦هـ بتسليم دخل ولاية كرناتك كلها دفعة واحدة لشركة الهند الشرقية(١٧). ومن الواضح أن الإنجليز كانوا على إعجاب شديد بمثل هذه الخدمات، ووصفوا آمالهم فى ابنه الأكبر – عمدة الأمراء – الذى كان من المقرر أن يخلف أباه فى المستقبل، فى أن يتابع خطى أبيه فى خدمة الإنجليز ولمصلحتهم، وواضح أيضا أنه طوال هذه الخدمات الجليلة التى كان يؤديها النائب محمد على وفى إطار مثل هذه الصفات

والخصائص التى يتصف بها بذلت جهود كثيرة لقبول عمدة الأمراء فى عضوية المحفل الماسونى التابع للإنجليز وذلك بهدف تشجيع عمدة الأمراء وأبيه على الاستمرار فى تقديم مثل هذه الخدمات الجليلة إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

لقد أصبح عمدة الأمراء ماسونياً بتوجيه وإرشاد شخص يدعى ترنس جهاجان (Terence Cahagan) وهمو هو الذى نقل لنا فى الخامس من فبراير سنة ١٧٧٧م/ ١١٩٠هـ مسار عضوية عمدة الأمراء فى «المحفل الإنجليزى الأعظم» حيث أطلع القائمين على رئاسة هذا المحفل على أن عمدة الأمراء يعتز بشدة بالماسونية ويفتخر بها. وبناء على هذا التقرير اتفقوا على أن يتم إرسال رسالة تقدير وشكر إلى عمدة الأمراء ومعها شهادة عضوية مزينة للماسونية ونسخة من كتاب قانون ودستور الماسونية، ووضعوا لها ثمناً ٣٧ جنيهاً استرلينياً و١٧ شلناً وست بنسات. وكانت هذه الرسالة قد قام بكتابتها جان دى (John Day) الذى أصبح بعد ذلك أحد كبار رجال القانون فى ولاية البنجال، وتوجه بنفسه لتسليمها ومعها الهدايا المذكورة إلى عمدة الأمراء، وقد جاء فى هذه الرسالة «إننى مكلف من قبل محفل الماسون الأعظم لبريطانيا العظمى بأن أقوم بتقديم هذه العضوية للماسونية وهذا الدستور لسيادتكم، وهذه الهدايا تشهد على الاحترام الشديد الذى يكنونه لشخصكم ولأبيكم الذى يعد صديقاً وحليفاً قوياً له لجلالة ملك إنجلترا، وتدل على سعادتهم بانضمام عضو بارز مثل سعادتكم إلى جمعهم. وإننى لآمل أن تقبل سعادتكم هذه المعاهدة لصداقة الماسون فى بريطانيا العظمى». ورداً على هذه الرسالة والهدايا قام عمدة الأمراء بكتابة رسالة باللغة والخط الفارسى وزينها بالذهب وأرسلها إلى «المحفل الإنجليزى الأعظم». وتاريخ هذه الرسالة ٢٩ سبتمبر ١٧٧٨م/ ١١٩٢هـ، ومازالت هذه الرسالة محفوظة فى مكتبة «المحفل الإنجليزى الأعظم فى المملكة المتحدة». وقد أكد عمدة الأمراء فى رسالته بشكل خاص على وفائه للحكومة الإنجليزية والقوانين والأعراف التى تحكمها حيث كتب يقول:

«إن معلوماتى السابقة عن الفوائد التى تنجم عن وحدة الرأى والمصالح بين أسرتنا والشعب الإنجليزى والاحترام العميق الذى أكنه وأحمله طوال سنوات عديدة من حياتى إزاء قوانين ذلك الشعب وأعرافه وتقاليده قد دفعنى لأن أنتهز أية فرصة لتحقيق تقارب أكثر فى هذه الصلات والعلاقات بينى وبين الإنجليز وما حصلت عليه حول قواعد الماسونية وأعمالها الإنسانية الأخوية ليثبت أن أى شيء لا يستطيع أن يحقق إلى هذا القدر رضا الخالق الذى نعبده جميعاً بأساليب مختلفة وأن أى شيء لا يستطيع أن يعلو إلى هذا القدر بقيمة خلقه ويكون مصدراً لفخرهم لأن مؤسسة الماسونية تعد سنداً للخير بعيداً عن أى نوع من التفرقة العامة.

ومع اعتقادى هذا فإن منتهى آمالى كانت فى أن أنضم إلى طائفة الأخوة الماسونية، والآن حيث دخلت فى عضوية الماسونية، فقد أصبح لقب «الماسون التابع للإنجليز» أحد أكثر الألقاب فخراً التى أتلقب بها لأنه من ناحية يدعم الصداقة التى بينى وبين الأمة الإنجليزية، ومن

ناحية أخرى فإنه يجعلنى من محبى الإنسانية وأصدقائها ومؤيديها، ولسوف أنتهز أى فرصة حتى أوضح لكم ولباقى الإخوة الماسون وأثبت أننى لست هذا الماسون الذى لا يحس ولا يهتم بالقوانين والقرارات التى قبلتها الماسونية؛ وأنى أحب الإخوة الماسون وأحترمهم وأقدرهم وأننى مؤيد للإنسانية ومسند لها وأننى على مقدرة لأن ألبى حاجة المحتاجين والمعوزين»(١٨).

وفى سنة ١٧٩٥م/ ١٢١٠هـ توفى محمد على وأصبح عمدة الأمراء نفسه حاكماً على كرناتك ونائباً عليها، ولكن يبدو أن الإنجليز والماسونية الإنجليزية لم يكونوا راضين إلى حد ما عن أسلوب حكمه، فقد كتب جولد أن عمدة الأمراء بعد أن أصبح نائباً مكان أبيه أخذ يفقد صداقة الماسون شيئاً فشيئاً، ويضيف أن أمير ويلز، الذى أصبح بعد ذلك ملكاً على إنجلترا باسم جورج الرابع (وكما ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا البحث أنه كان ماسونياً) أرسل رسالة إلى عمدة الأمراء، ولكن ليس من الواضح ماذا كان موضوع هذه الرسالة وأى أثر تركته فى حياة عمدة الأمراء الماسونية(١٩) ويكتب اسبير أن عمدة الأمراء كان رجلاً أضعف من أبيه، وأن الإنجليز لم يكونوا يرغبون فى أن يفقدوا منطقة خصبة مثل كرناتك بأى حال من الأحوال، ولهذا السبب ادعاء الإنجليز بعد موت عمدة الأمراء فى سنة ١٨٠١م/ ١٢١٦هـ أنه كانت له ولأبيه مراسلات مع تيبو سلطان العدو اللدود للإنجليز، بعدها حرموا ابن عمدة الأمراء من أن يعتلى كرسى أبيه فى حكم ولاية كرناتك(٢٠).

ميرزا أبو طالب أصفهانى والماسونية:

يقول جوپتا إن عمدة الأمراء كان أول رجل هندى يجد له مكاناً ضمن طائفة الماسونية(٢١). فلم يتحدث أى من الاثنين اللذين كتبا فى تاريخ الماسونية فى الهند – جولد وجوپتا – عن دخول أى هندى آخر ضمن طائفة الماسونية خلال القرن الثامن عشر ولكن من الواضح أنه كان هناك بحث وتطلع حول ماهية أهداف الماسونية ونشاطها وجد بين أهل الهند. وكان أول هندى يعرف طريقة إلى داخل إحدى الحلقات التى تنسب للماسونية فى لندن شخص مسلم إيرانى الأصل يدعى ميرزا أبو طالب أصفهانى (١٧٥٢-١٨٠٦م/ ١١٦٦-١٢٢١هـ). وكن أبوه «محمد بيك خان من جماعة الأتراك» قد ولد فى منطقة عباس آبا بأصفهان لكنه كان قد غادر إيران فى شبابه هرباً من سطوة نادر شاه أفشار وتوجه إلى الهند»(٢٢).

وكان ميرزا أبو طالب الذى ولد فى لكهنو، رجلاً ذكياً، وذا أفق وأصبح يمارس الكتابة وقرض الشعر، وقد اعتبره أحد الكتاب الهنود «أعظم مفكر اقتصادى فى الهند خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر»، وبعد وفاته بإحدى عشرة سنة رجع أهالى الهند لمؤلفاته وأفكاره الاقتصادية لمواجهة الفقر والجفاف(٢٣). كان ميرزا أبو طالب هذا قد انخرط فى خدمة الإنجليز وذلك من خلال صلاته مع عدد من مسئولى شركة الهند الشرقية الإنجليزية مثل الكولونيل الكسندر هامرى (Colone Alexander Hamary)

وجونسون (Johnson) وما ورد فى كتاب «تفضيح الغافلين» وهو من مؤلفات ميرزا أبو طالب نفسه يثبت إلى أى مدى كانت له علاقات ودية وحميمة مع الإنجليز أثناء خدمته فى جهاز حكومة أصف الدولة «نائب وزير» فى ولاية أوده (Avadh) إلى درجة أنه يذكر بنفسه فى هذا الكتاب أنه قام بإيواء وحماية ضابط إنجليزى يدعى المقدم هاو (Major Howe) أثناء خوفه على حياته فى خلافات ومناوشات وقعت مع أصحاب الأراضى المحليين فى منطقة «دوآب»(٢٤). واستمراراً لخدماته لعمال الاستعمار الإنجليزى قام ميرزا أبو طالب بتحريض من بعض المسئولين فى الشركة لمواجهة ومحاربة أحد الحكام الهنود المحليين فى ولاية أوده، وطبقاً لما أورده هو نفسه فقد كانت له حروب عديدة مع راجا مسطور، انتهت بمقتل الأخير(٢٥).

لكن هذه الخدمات الجليلة التى كان يقوم بها ميرزا أبو طالب لصالح الإنجليز أصبحت فى النهاية سبباً فى خراب حياته وإحالته إلى التقاعد دون مزاولة أى عمل رسمى أو نشاط حكومى حتى أخذه معه إلى إنجلترا «صديق إنجليزى قديم» يدعى كابتن ريتشارد سون (Captain Richardison) فى سنة ١٧٩٩م/ ١٢١٣هـ وظل فى رحلته هذه إلى أوروبا حتى عام ١٨٠٣م/ ١٢١٨هـ دون فيها كثيراً من المعلومات عن جولته هذه، وخلال فترة إقامته فى انجلترا استقبله كبار المسئولين بحفاوة وكان موضع إعزاز من علية القوم هناك. وكما يقول فقد كان يسكن فى لندن فى إحدى الضواحى التى تشكل النساء الساقطات أغلب سكانها، ورغم هذا كله، فلأن «حرمته واحترامه كانت قد أصبحت كالنقش على الحجر فى أذهان أكابر لندن» فإن كبارا لمسئولين الإنجليز لم يقطعوا عنه المودة علىٰ الإطلاق وكان «مستر دنداس» (Mr. Dandas) وزير شئون الهند فى حكومة الإنجليز أحد الأشخاص البارزين الذين «أبدوا كثيرا من التعظيم والاحترام عند لقائهم بميرزا أبو طالب» وهذا الوزير هو نفسه الذى «عرض أحواله بعد أيام من لقائه على رجال الملكية الإنجليزية» وأخذه «فى زمرة ملازمى الإمبراطورية وملكتها».

بعد هذا الحدث، أخذ الأمراء وسائر الوجهاء وأغلب السادة فى لندن تتملكهم الرغبة فى لقائى لمعرفتى عن قرب وكرروا دعوات ضيافتهم لى إمعاناً فى إظهار حسن معاشرتهم واسترضاء وإكراماً للضيف الغريب – وهذا من مزايا وفضائل طبع الإنجليز – وبناء على هذا، كنت كل يوم فى مكان مختلف، وأخذت أنعم بحظ وافر من الطعام والشراب والبهجة والسرور والطرب الذى كان يتجدد فى كل مكان نتيجة لعلو ذوق الإنجليز وتنوع طباعهم وتلونها بمختلف الألوان الجميلة»(٢٦).

وعلى هذا تعمقت الصداقة والمودة بين ميرزا أبو طالب ورجال السياسة والمجتمع الإنجليزى إلى حد عميق، وقد قام ميرزا أبو طالب فى كتابه «مسير طالبى» بتحليل جوانب متعددة من المجتمع الإنجليزى، وانتقد بشدة عدداً من هذه الجوانب. لكنه فى النهاية يعتبر من محبى وعشاق إنجلترا والإنجليز ويظهر هذا بوضوح شديد فى جميع مذكراته التى كتبها حول رحلته وزيارته إلى انجلترا.

ونظراً لما كان يبديه ميرزا أبو طالب من تعاطف وود تجاه الإنجليز ولغة الإعجاب والمدح التى تحدث بها عن الإنجليز فى كتابه عن رحلته إلى انجلترا فإنه يبدو أن الجهاز الحاكم فى انجلترا كان قد توصل إلى أن يضع ميرزا أبو طالب فى الصف الأول من خدامه وعملائه ومعاونيه ويجعل منه عميلاً أكثر نفعاً وأشد وفاءً لكى يستفيد من ذكائه واستعداده الشخصى بأسلوب أكثر تأثيراً وأوسع نطاقا لصالح المخططات الاستعمارية لشركة الهند الشرقية فى الهند. وربما كان هذا هو الذى دفعه لأن يكتب أنه أثناء حضوره لمأدبة حضرها المدراء البارزون فى شركة الهند الشرقية الإنجليزية وزعماء الهند «أجلسوا الجميع فى موضع أقل منى»، وأضاف يقول «إن نفس هذا اللورد المضيف هو الذى قرر أن يعهد إلى بأن أكون مبعوث انجلترا لشاه إيران وزمانشاه «الأفغانى» حيث كان يريد أن يبعثنى من انجلترا إليهما حاملاً رسائل وهدايا»(٢٧).

ومن هذا المنطلق ولتحقيق هذا الهدف يبدو أنه تمت دعوة ميرزا أبو طالب إلى الحديقة التى «تنسب إلى الماسونية» وكان قد سمع حول الماسونية «حكايات عجيبة» كثيرة، تجعل «عقل سامعها يقع فى شك واضطراب»، لكنه على عكس ما ينتظر لم يقع تحت تأثير هذه «الحكايات العجيبة» إلى حد كبير، إلى درجة أنه يذكر بنفسه، «إن ما توصلت إلى معرفته لم يكن بهذا القدر» حيث كتب يقول:

«كانت الليلة التى ذهبت فيها إلى حديقة اسباو (Spaw Garden) هى ليلة ميلاد أمير ويلز (Prince of wales) ولى عهد بريطانيا. واحتفالاً بهذه المناسبة تمت إضاءة تلك الحديقة بمصابيح الزينات المتلألئة التى تبهر العيون عند رؤيتها، ولكثرة الألعاب النارية وآلاف الروبيات التى أنفقت فى هذه المناسبة كان كل إنسان يتخيل لفرط السعادة المحيطة به أنه أخ حقيقى لهذا الأخير»(٢٨).

كان ميرزا أبو طالب لا يعول كثيراً على الحكايات التى دارت حول الماسونية، وكان يعتبر حكاية «أخوة» الماسون لأمير الإنجليز «مجرد وهم» ولا يعبأ كثيراً بأعمالهم السرية، وكان يعرب عن سوء ظنه تجاه الماسونية، حيث لم يقبل فى النهاية دعوة الماسون له ليكون عضواً فى الماسونية.

لم يكن ميرزا أبو طالب يولى اهتماماً كبيراً إلى القصص والروايات التى تروى عن الماسونية وكان يعتبر مكانه أخوة الماسون لولى العهد الإنجليزى «وهماً خاطئاً» وفى الخفاء كان يعتبر أعمالهم التى يقومون بلا أى قيمة، وكان يعرب دائما عن تشاؤمه وسوء ظنه تجاه الماسونية. وفى النهاية لم يقبل دعوة الماسون له لانضمامه إلى عضوية الماسونية:

«بالوهم الخاطئ للأخوة والتآخى مع الأمير وباقى وجهاء الدولة واليقين من مساعدة وعون سائر الماسون وقت الحاجة والنشاط الوافر الذى توفر فى طبع الماسون يصبح الواحد منهم

شخصاً آخر ولكى يعظم من شأن نفسه ويحتقر الآخرين والأخيار ويجعلهم فى موقع العجز فإنه لا يخبر أحداً عن شئ مما يراه من أحوال داخل أروقة الماسونية. فالبعض يبدى خجله فماذا يقول عن هذا الذى لا يستحق الذكر، والبعض من خفيفى الظل ويتحدثون بشكل واضح لا يقبل السامعون ما يقولونه ويظنون أنهم يكذبون علينا بهدف الكف عن اللح فى السؤال وسد باب التساؤل. وضمن ذلك كلفونى أنا ايضاً وكانوا يبدون شغفاً كبيراً بمسلكى لكننى اعتذرت عن ذلك»(٢٩).

وكما يبدو من كلام ميرزا أبو طالب هذا أنه ذهب إلى حفل ذكرى ميلاد أمير ويلز ولى عهد إنجلترا فى ذلك الوقت «جورج أغسطس فردريك (George Augustus Frederick). وهذا الأمير هو الذى أصبح بعد ذلك ملكاً على إنجلترا سنة ١٨٢٠/١٢٣٦ وتسمى بجورج الرابع (George IV) وكان بعد من كبار زعماء الماسونية وقادتها أيضا(٣٠). وعلى الرغم من أن هذا الاحتفال على شرف ملك إنجلترا القادم. وعلى الرغم من تلك الأهمية التى كان يشكلها هذا الاحتفال الماسونى إلا أن ميرزا أبو طالب قد رفض تكليفه بأن يصبح ماسونيا لأى سبب واضح أو غير واضح فى ذهنه.

الماسونية مركزاً لتجمع الخبراء والعلماء:

لما كانت بلاد الهند مركزاً لنشاط الشركات التجارية التابعة لمختلف دول أوروبا فقد أخذت نشاطات الماسونية تتوغل وتنتشر عن طريق هذه الشركات شيئا فشيئا. ولهذا السبب وجدنا فضلا عن المحافل الإنجليزية محافل ماسونية كثيرة أخرى كانت تتبع الدنماركيين والهولنديين والفرنسيين(٣١). ولكن كما أشرنا من قبل فى هذا الفصل فإن قليلا ما كان يشاهد عضو هندى سواء كان مسلما أو غير مسلم بين الماسونية فى هذه المحافل، وذلك لأن جهود الماسونية كانت مركزة على ألا يقبل أحد منهم فيها، وقد ذكر جوبتا فيما يتعلق «بالمحفل الأعظم فى ولاية كلكته» (Provincial Grand Lodge at Calcutta).

إن أغلب ملفات الماسونية قد فقدت، ولهذا السبب فإنه قلما شوهد نشاط ماسونى من قبل أهل الهند المحليين إلى درجة أنه يعتبر إن أقدم عضو هندى انضم إلى «المحفل الأعظم» هو مير بنده على خان الذى انضم إلى طائفة الماسون سنة ١٢٢٧/ ١٨١٢ فى مدينة كلكته فى «محفل شاه الحرية» (Marine Lodge). وقد كتب جوبتا أيضا أنه فى سنة ١٨٣٤/١٢٥٠ انضم رجل مسلم يدعى محمد إبراهيم بركار إلى «محفل الأمل» (Lodge of Hape) فى أحمد نكار بومبى، كما انضم مسلم آخر يدعى محمد إسماعيل خان، سفيراوده فى سنة ١٨٣٨/١٢٥٤ إلى «محفل الصداقة» (Lodge of Friendship) بكلكته(٣٢).

وفى النصف الثانى من القرن التاسع أصبح التحاق الأعضاء على ما بهم من نقائص وما يتبعونه من مذاهب وأديان مختلفة شيئا فشيئا يحظى بحرية كبيرة وذلك نتيجة للجهود التى بذلها الهنود فى هذا السبيل. وقد استطاع عدد منهم أن يجلسوا إلى جانب بعضهم البعض على الرغم

من اختلاف عقائدهم المذهبية والدينية وقد وصل البعض منهم إلى منصب «الأستاذ الأعظم» أيضا حتى أنهم قاموا بتأسيس محافل خاصة بهم. فقد بدأ محفل الأمن والأمل (Lodge Anchor and hope) الذى كان قد تأسس فى كلكته فى سنة ١٧٧٣/١١٨٧ تحت رعاية وإشراف «المحفل الإنجليزى الأعظم» فى استقبال عدد كبير جدا من الخبراء والعلماء والقادة الهنود المشهورين فى عضويته أو رئاسته.

ويبدو من التقارير أنه كان من بين الأعضاء الهنود والأساتذة لهذا المحفل الماسونى رجال قانون وقضاة كبار أو وكلاء نيابة، ومديرو شرطة، ونواب برلمان وأساتذة جامعات ومحاسبون ومديرو عموم فى الشركات ومغنيون مشهورون ومدير عام فى البريد، والراجات ومديرو الأمن ورئيس هيئة السكك الحديدية ووزير التعليم وكان يُرى كذلك زعيم مذهبى. وبين هؤلاء الماسون البارزين يظهر أسماء لعدد من المسلمين أيضا منهم: أسد الله (K.M. Asadullah) أمين عام المكتبة الملكية، وصديقى (M.Z. Siddiqu) أستاذ بجامعة كلكته وقد كان لهما منصب الأستاذ فى «محفل الأمن والأمل» بالترتيب فى سنوات ١٣١٥/١٩٣٦ش ١٣١٨/١٩٣٩ش. وتشير قائمة أعضاء هذا الحفل فى سنة ١٨٨٦/١٣٠٤م أيضا إلى أن أحد علماء الدين الهنود ويدعى شمس العلماء كمال الدين أحمد وكان رئيسا لمدرسته كلكته كان من بين طائفة الماسون أيضا.

ونحن نعلم أيضا أن أول رئيس لمجلس النواب الهندى (كنكَرهء ملى هند) الذى تأسس فى سنة ١٨٨٥/١٣٠٣، وهو السيد بونرجى(W.C. Bonnerjee) كان فى سنوات ٩٥-١٢٩٦ / ٧٨-١٨٧٩ يرأس (محفل الأمن والأمل) (انظر نهاية هذا الفصل).

ومن المحافل الخاصة بالهنود نجد محفلاً باسم «محفل الإسلام» (Lodge Islam) الذى كان يتبع ماسونية اسكوتلندا وتم تأسيسه فى سنة ١٨٧٦/١٢٩٣ فى مدينة بومبى. وهناك أربعة أشخاص مشهورين من مؤسسيه المسلمين وهم ميرزا على أكبر خان، ميرزا حسن خان، الشيخ حيدر قاسم، وفيضى الله. وهذا المحفل الذى كان أول أستاذ له ماسونى إنجليزى يدعى فرانسيس ترنر (Francis Turner) يختار أعضاءه من المسلمين والهندوس والزرادشتيين واليهود والطوائف الأخرى.

وقد أعلن أن من بين مطالبه وأهدافه نشر روح التسامح والبعد عن النظرة الأحادية والتعصب للغة أو المذهب أو اللون، وقد دخل إلى عضوية «محفل الإسلام» عدد كبير من علماء الهند والوجهاء البارزين الهنود منهم القضاة أمثال بدر الدين طيب جي، وضباط الجيش والأطباء والمهندسون والمعماريون والتجار. ومن الأعضاء البارزين فى هذا المحفل أفراد أسرة طيب جى الذين وصل خمسة أشخاص منهم إلى منصب أستاذ فى الماسونية بين سنتى ١٣٣٩-١٢٩٧/ ١٩٢٠-١٨٧٩(٣٣).

مكافحة الماسونية فى الهند:

إزاء هذا النشاط الماسونى الذى كان يقوم به الهنود أنفسهم كان هناك أيضا عدد من الهنود ينظرون إلى المنظمة الماسونية نظرة ريبة وشك. ففى سنة ١٨٧٣/١٢٩٠ تم طبع ونشر مجموعة من النشرات والكتابات تحت اسم «إفشاء أسرار الماسونية» فى لكهنو كانت فحوى كتابات رجل يدعى دبير الإنشاء وبعض المقالات الأخرى التى طبعت من قبل باللغات الفارسية والأوروبية حول الماسونية. فعلى سبيل المثال فإن جزءاً من مقالة نشرت باللغة الأوروبية فى الخامس عشر من أبريل ١٢٧٨/١٨٦٢ وردت فى هذه المجموعة من النشرات، ويدور فحوى هذا الكتاب فى أكثر موضوعاته حول الكفر والزندقة والإلحاد ويركز حول محاربة الماسونية وعدائها السافر للدين والمذهب ويتحدث هذا الكتاب عن شيطان أو جان كان على أيام سليمان وإلى التعاليم التى كان يعلمها هذا الجن للناس على عهده وقد ظهرت اليوم باسم الماسونية وأصبحت سبباً لضياع العالمين وضلالهم.

وكان كتاب هذه المجموعة يعتبرون مفهوم الآيات القرآنية وتفسيرها تحذيراً ضد التعاليم الماسونية ويحذرون قراءهم من أن أى شخص يقبل تعاليم الماسونية سوف يفقد إيمانه على الفور. وقد كتب أحد هؤلاء الكتاب كان يعتبر نفسه رجلاً مستقيماً وعلى دين وخلق وأنهم لم يلقنوه أسرار الماسونية الخفية إلا إذا فقد إيمانه وتدينه. ويضيف إنه بمجرد أن تذكر فجأة كلمة «الله» ابتعدت عنه تعاليم الماسونية تماماً.

وتقرأ فى هذا الكتاب أيضا أن دبير الإنشاء قد سافر إلى كلكته فى سنة ١٨٥٢/١٢٦٩ حتى يحصل على معلومات حول الماسونية وما وجده هناك يمكن تلخيصه فى إطار إلحاد الماسون وعدم إيمانهم بوجود إله. وقد كتب رجل آخر يدعى جواد على وكان يعمل مديراً لمدرسة شركة الهند الشرقية وكانت له علاقة مع طائفة الماسون لمدة ثمانية عشر عاما كتب يقول إن الماسونية تتعامل بالسحر وتتعاطاه بمساعدة الشيطان والجان. ويعلمنا جواد على أيضا أنه لا يوجد فى محفل الماسون لا قرآن ولا إنجيل كى يقسم عليهما أولئك الذين يؤمنون بهذين الكتابين المقدسين، ويضيف قائلاً إن الماسون قالوا له إن الله لا يحتاج إلى عبادة العباد وبناء على ذلك تحلل الماسون من قيود العباد ولوازمها. وقد أورد كاتب آخر يدعى داوود خان وهو الذى قام بنشر «إفشاء أسرار الماسونية» حكاية حدثت فى سنة ١٨٥٢/١٢٦٩ نقلها عن أستاذ فى مدرسة الشركة (سركار كمپانى) تدور حول أنه لا وجود للإيمان بالله فى الماسونية وأن الماسونية تعتبر المعتقدات الدينية مثل القيامة والجنة والنار والحساب والكتاب والكتب السماوية والملائكة والرسل وأقوال الرسل كل هذه الأشياء تعتبرها الماسونية غير صحيحة. ويضيف أيضا أن الماسون قالوا له إنه إذا أرادوا أن يسجدوا لله فإن أفضل وسيلة لذلك هى الرحمة والطيبة والتعامل بالحسنى مع عباد الله واجتناب الكذب والنفاق والحرص والبخل(٣٤).

ويلاحظ فى كلام جواد على عدم اتساق بعض الشيء وتناقض، فكلامه حول عدم وجود قرآن أو إنجيل فى المحفل الماسونى وما يقوله الماسون حول عدم حاجة الله تعالى لعبادة العباد يدل كلاهما على أن المحفل الماسونى الذى كان يعرفه لم يكن ملحداً بشكل مطلق وكان يقبل أشخاصاً يؤمنون بالقرآن والإنجيل وأن أعضاءه كانوا على درجة من الإيمان بإله ليس فى حاجة إلى عبادة البشر. وأيضا ما قاله أستاذ مدرسة الشركة (سركار كمبانى) لا يخلو هو الآخر من تناقض لأن استدلال الماسون على أن السبيل إلى إسعاد الله ورضاه هو حسن التعامل والرحمة مع عباده يحمل معنى بوجود فعل لإله يسعد ويرقى بحسن التعامل والرحمة مع عباده من البشر. وفضلاً عن هذا فإن هذا النوع من كلام هؤلاء الكتاب لا يتواءم بشكل كبير مع أحداث تاريخ الماسونية لأنه كما ذكر فى الفصول السابقة فإن شرط الدخول إلى المحافل الماسونية التابعة للإنجليز كان الإيمان بخالق الدنيا. بالإضافة إلى ذلك فإن المحافل الفرنسية كانت فى نفس الوقت التى صدرت فيه هذه الكتابات ومن كتابها تشترط نفس هذا الشرط أيضا للدخول إلى الماسونية ولكن بعد طباعة هذا الكتاب ونشره بأربع سنوات تماما «إفشاء أسرار الماسونية» أى فى سنة ١٨٧٧/١٢٩٤ حذفت الماسونية التابعة «للمحفل الفرنسى للشرق الأعظم» شرط الإيمان بالله وعبوديته من شروط عضويتها(٣٥). ويبدو أن الهدف الأساسى للكتاب ولمن ألغوه كان انتقاد الإلحاد والكفر والزندقة لكنهم أرادوا أن يطرحوا انتقادهم فى إطار حديث يتعلق بالماسونية والماسون.

مجلس النواب الهندى والماسونية:

تحدثنا آنفاً عن بونرجى الماسونى كأول رئيس لمجلس النواب الهندى وعن بدر الدين طيب جى كأحد كبار القضاة وكعضو بارز وخبير فى «محفل الإسلام» ولا ضير إذا ما أكملت الحديث حول هذا الموضوع. فنحن نعرف أن تمرداً واسعاً (Muting) ضد الاستعمار الإنجليزى قام فى الهند خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر وأنه قد تم جمعه خلال عام ١٨٥٧/١٢٧٤ بأسلوب وحشى وبمنتهى الشدة والصرامة والإجحاف، ومنذ ذلك العام دخلت الهند بأسرها تحت السيطرة والقيادة المباشرة للإمبراطورية البريطانية.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ سوء ظن الإنجليز وشكهم فى وفاء شعب الهند يزداد شيئا فشيئا. فهذه الأحداث وما صاحبها من عوامل أخرى كانت سبباً فى توسع الإنجليز فى تشددهم الاستعمارى فى بلاد الهند. ويرى بعض المتخصصين فى تاريخ الهند من أمثال استيفن هى (Stephen N. Hay) أنه خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تشددت الإمبريالية التوسعية الأوروبية تؤيدها النظرية الداروينية فى علم الاجتماع فى تعميق الإحساس بتفوق الجنس الأبيض على الشعوب ذات البشرة السوداء التى تحت حكمها. ورغم ما كان يقال فى البرلمان الإنجليزى من خطب وكلمات مناصرة ومتضامنة مع الهنود، ورغم أن الملكة فيكتوريا (Queen Victoria) أصدرت فى سنة ١٨٥٨/١٢٧٥ إعلان مصالحه إلا أن

الإنجليز الذين كانوا يحكمون بلاد الهند قليلا ما شغل تفكيرهم أن يطلقوا لشعب الهند العنان في إدارة شئونه الخاصة(٣٦).

ولكن من ناحية أخرى كانت هناك أحداث وتغييرات تجرى داخل المجتمع الهندى أدت إلى أن يتراجع إنجليزيو الهند على المستوى العملى عن هذا الأسلوب العنصرى المتعالى الأنانى، فقد حصل عدد كبير من المواطنين الهنود على دراسات عليا فى كافة التخصصات وكثير منهم من حصل على درجة الدكتوراه فى الحقوق وقد انضم عمل هؤلاء بكل جد واجتهاد فى خدمة الإنجليز وكونوا طبقة أو طائفة لعبت فى الحقيقة دور الوسيط بين جماهير شعب الهند والحكام المسيطرين من الأجانب. فقد كانت هذه الطبقة تعرف اللغة الإنجليزية التى كانت مفتاحاً للتقدم والترقى وكانوا يعملون فى الأعمال الحكومية ككتاب أو مدرسين أو وكلاء نيابة وهذه الطائفة من الهنود كانت لها أيضا صداقاتها الوطيدة مع الإنجليز وكانوا يعملون بوفاء لصالح الحكومة الإنجليزية فى الحكم ولأن الهنود كانوا ومازالوا يتحدثون بلغات محلية مختلفة ومتعددة فقد أصبح تعلم اللغة الإنجليزية سببا فى أن تتمكن هذه الطائفة من الهنود فى جميع أنحاء بلاد الهند من التفاهم مع بعضها البعض بلغة موحدة وأن يتبادلوا المشورة فيما بينهم ويعبروا عن مطالبهم وآمالهم لبعضهم البعض كما استطاع الهنود عن طريق تعلم اللغة الإنجليزية أيضا التعرف على مفاهيم غربية جديدة وأفكار ديمقراطية مثل العدالة والحرية والمواطنة وحب الوطن.

ومن ناحية أخرى فإن الضغوط الاقتصادية والسياسية والأنانية المتزايدة التى كانت تمارس على شعب الهند من قبل الحكومة الاستعمارية أدت إلى توسع وانتشار غضب جماهير واسعة من الشعب الهندى وزيادة هذا الغضب والسخط يوما بعد يوم. ولهذا رأى بعض الساسة المستعمرين من الإنجليز أنه من الأفضل أن ينحازوا إلى جانب هذه الطبقة أو الفئة من الشعب الهندى وأن يجبيونهم بما يليق بهم وأن يطلقوا لهم العنان فى شئون الهند إلى حد، وذلك بدلا من مواجهة تمردات مثل تمرد ١٨٥٧/١٢٧٤. كذلك يبدو أن فكرة ظهور أول «مجلس نواب هندى» (Indian National Congress) والجهود التى بذلها ريبون (Ripon) نائب السلطة فى بلاد الهند خلال السنوات ١٢٩٨-١٣٠٢ / ١٨٨٠-١٨٨٤ فى التفاهم والتعاون والتشاور مع المتعلمين الهنود يمكن النظر إليها ومناقشتها من خلال هذا الإطار. فخلال الجلسة التى عقدت لتوديع (Ripon) ريبون تم الاتفاق على أن يتم فى البداية تأسيس (National Indian Association) «مجمع هندى وطنى» حتى يكون على عكس المؤسسة السابقة التى كانت تسمى «مجمع الهند الشرقية الإنجليزى فى بومبى» (Bombay British East India Association).

ليكون ذى توجه وطنى وشعبى بشكل أكثر أيضا يجب أن نذكر هنا أن الدور الأساسى فى إقرار «مجلس النواب الهندى» فى سنة ١٨٨٥/١٣٠٣ كان فى عهدة هيوم (Octavian Hume)، الذى كان يعد من الرجال الثقاة الذين اعتمد عليهم ريبون وحملهم أسراره، كما كان

له ماضى طويل جداً فى تقديم مختلف الخدمات للجهاز الاستعمارى الإنجليزى. فعلى سبيل المثال كان قد قام خلال تمرد الهنود عام ١٨٥٧/١٢٧٤ «بخدمة جليلة» لصالح المستعمرين والمستغلين الإنجليز حيث كان يعرف المجتمع الهندى تمام المعرفة وكان على علم بما يربط القوات الاستعمارية بالشعب الهندى كما كانت لديه معلومات عميقة حول الشخصيات المعنية ببلاد الهند – سواء الإنجليزية أو الهندية.

وفى مسيرة الأحداث التى أدت إلى ظهور «مجلس النواب الهندى» كان هيوم الذى كان قد تقاعد منذ عام ١٨٨٢/١٣٠٠ عن خدمته فى الهند فى حالة نشاط شديدة وفعالية وكان على علاقة وثيقة الصلة بالهنود المتعلمين الذين أرادوا تأسيس مثل هذا المجلس، وكما يقول مارتن (Martin) فإن هيوم كان له دور واضح حتى فى الاسم الذى وضع للمجلس «مجلس النواب الهندى» لأنه كان من مؤيدى النظام السياسى ونظام الحكم فى أمريكا واختيار اسم «الكونجرس» لهذه المؤسسة ولقب «نائب» (Representative) لأعضائها ما هو إلا وليد إعجاب هيوم ببنية الحكومة الأمريكية ونظامها السياسى (فى الولايات المتحدة يطلق على نائب البرلمان Representative)، كما يطلق على المجلس المكون من مجلس النواب ومجلس الشيوخ (الكونجرس). كما كان لهيوم أيضا ارتباط خاص بقضية التحرر فمنذ بداية شبابه تعرف على الأفكار التحررية. وكانت الماسونية والمحافل السرية فى باريس سنة ١٨٤٠/١٢٥٦ قد تركت أثرها الشديد عليه(٣٧). ولهذا ربما لا يثير العجب كثيراً إذا وجدنا أن عدداً كبيراً من المعنيين والمنتمين إلى (المجلس الوطنى الهندى). مجلس النواب – والذين كانوا ذووى نفوذ وفعالية كبيرة هم فى الأصل أعضاءٌ فى الماسونية.

ومن المسلمين الذين كانوا يتباحثون مع ريبون ويجلسون معه للتشاور والنقاش بدر الدين طيب جى رجل القانون الهندى البارز والذى كان له تواجد وحضور ودور فى كل مكان خلال مسيرة تشكيل (المجلس الوطنى الهندى). وكما أشرنا آنفاً فى نفس هذا الفصل فقد كان بدر الدين طيب جى هذا من الماسون أيضا. فللقيام بالاعدادات اللازمة لتأسيس (المجلس الوطنى الهندى) تم تشكيل لجنة مكونة من طيب جى وبعضٍ الأشخاص الآخرين حتى يكونوا على اتصال دائم بالصحف فى لندن وفى الولايات الهندية فيما يتعلق بهذا الشأن. وقد بدأت أول جلسة للمجلس الوطنى الهندى فى فبراير سنة ١٣٠٣/١٨٨٥ ولم يكن هذا الأمر ليحدث إلا نتيجة لفعالية ونشاط المنظمين والمؤسسين للمجلس أمثال طيب جى.

وكان رئيس هذه الجلسة رجلاً زرادشتياً مسناً من بومبى يدعى جى جيب هوى (Jeejeebhoy) وقد تحدث بشأن الوفاء لحكومة الإنجليز فى الهند وقال: إن نظام اللورد ريبون قد حاز أهمية وتأثيراً كبيراً بالنسبة لأفكار الهنود، كما قال الحاكم الذى خلفه أيضا إن خطة ريبون وبرنامجه سوف يتم متابعته بدقة. وتابع طيب جى الحديث حول هذا الموضوع واعتبر أن تأسيس مجلس وطنى يعتبر من الأمور الضرورية والشديدة الوجوب. وفى هذه

الجلسة تم اختيار أمينين للمجلس كان طيب جى الماسونى واحداً منهما(٣٨).

وهناك شخصية أخرى مشهورة من رجال القانون والنشطاء الذين كان لهم مكانهم فى طائفة الماسون وهو بونرجى هذا. الذى حاز لقب «أستاذ» فى «محفل الأمن والأمل» خلال السنوات ١٢٩٥-١٢٩٦/١٨٧٨-١٨٧٩، وكان يعد من الأصدقاء المقربين لهيوم. وقد ترأس أول «مجلس وطنى هندى» فى ديسمبر سنة ١٣٠٣/١٨٨٥ باقتراح من هيوم. وكان لرئاسة بونرجى للمجلس فائدة كبيرة لأن هيوم ولجنة من مستشاريه كانوا هم من يقومون بالتوجيهات بينما كان بونر جى يتحكم بالمجلس تحت يده كرئيس له ولهذا السبب أصبح المجلس قاعدة للحوار والحديث حول المصاعب والمعوقات السياسية فى الهند. وكان المجلس الأول الذى افتتح فى بومبى يسيطر عليه الهنود بشكل كامل وطبقا لتقرير دائرة المعارف الخاصة بالمجلس الوطنى الهندى (The Encyclopedia of Indian National Congress) فإن عدد أعضاء هذا المجلس كان يصل إلى ٧٢ عضواً(٣٩). ولم يكن بين هذا العدد سوى عضوين من المسلمين. أما المجلس الثالث الذى بدأ أعماله فى مدرس فقد شارك فيه ٦٠٤ عضواً كانوا من مختلف المناطق والجهات الهندية وكان عدد المسلمين فيهم قد وصل إلى ٨٣ عضواً. وكانت زعامة هؤلاء الأعضاء المسلمين فى المجلس معقودة لبدر الدين طيب جى الماسونى هذا نفسه(٤٠).

ومن الواضح أن ماسون آخرين أمثال غزال (J. Ghosal) رجل القانون والسياسى المخضرم وأخو زوجته طاغور (Tagore) الشاعر الهندى الأشهر كانوا نشطين فى (مجلس الهند الوطنى)(٤١) كذلك إلى درجة أننا نعرف ماسونياً آخر يدعى راش بهارى غوش (Rash Bahory Ghosh) ترأس (مجلس الهند الوطنى) مرة واحدة على الأقل(٤٢)، ولكن لأن هدفنا فى هذا البحث هو دراسة نشاط الماسون المسلمين فإننا لن نتطرق إلى نشاط غيرهم من الماسون. ولابد لنا من أن نذكر هنا هذه النقطة التاريخية وهى أن المطالب والأهداف الأولى للإنجليز من تفهم مسألة تشكيل (لمجلس الوطن الهندى) والسماح به كانت تتلخص فى منع انتشار موجات السخط والغضب والتمرد. وطبقاً لما أورده مؤرخو تاريخ الهند فقد أراد الإنجليز أن يستخدموا هذه المؤسسة كصمام أمان (Safty-valve) لكن هذا المجلس سرعان ما تحول إلى مؤسسة قومية تشمل وتضم كل أنحاء الهند(٤٣)، ولهذا السبب كان أن بذل الإنجليز أقصى جهدهم بعد ذلك فى إخفاقه وتفريغه من محتواه ومضمونه(٤٤).

استمرار النشاط الماسونى:

استمر النشاط الماسونى فى الهند خلال القرن العشرين وبعد أن تخلصت هذه البلاد من نير الاستعمار الإنجليزى فى سنة ١٣٢٦/١٩٤٧ش وحتى يومنا هذا مازال مستمراً كذلك حيث يتبوأ الأعضاء التابعون للماسونية أعلى المناصب فى الدولة. ففى سنة ١٣٣٨/١٩٥٩ش قرر

«كبار أساتذة» الماسونية فى انجلترا واسكوتلندا وأيرلنده خلال اجتماع عقدوه فى لندن تأسيس «محفل» أعظم فى الهند (Grand Lodge of India) بشكل مستقل. ويشير تقرير كتبه أحد الماسون الهنود فى سنة ١٣٦٠/١٩٨١ش إلى أن عدد المحافل الماسونية الهندية التى تتبع اللوائح والقوانين الهندية والإنجليزية والاسكتلندية والأيرلندية قد وصل إلى ٢٤٢ محفل كما وصل عدد الأعضاء التابعين لهذه المحافل إلى ٢٠ ألف عضو(٤٥).

وتشير مسودة قامت بنشرها وتوزيعها الماسونية الأمريكية فى سنة ١٣٥٠/١٩٧١س إلى أنه فى هذا التاريخ كانت كل مدينة من الغالبية العظمى فى المدن الهندية يوجد بها محفل أو عدة محافل أقامها الماسون وكان «أستاذهم الأعظم» أحد أساتذة الجامعة ويدى ثاكر (M.S. Thacker)(٤٦).

كذلك شهدت بلاد الهند خلال القرن العشرين الاحتفالات العظيمة لذكرى تأسيس مختلف المحافل الماسونية. ففى سنة ١٣٥٢/١٩٧٣ش احتفل «محفل الأمن والأمل» بذكر مرور مائتى عام على تأسيسه «وكان الاحتفال بدرجة تليق بالحدث» أما «محفل الإسلام» الذى كان يضم منذ بدايته حتى الآن حوالى مائة عضو فى المتوسط فقد أبدى نشاطاً أكثر فى هذا المجال. حيث احتفل فى سنة ١٣١٩/١٩٠١ بالذكرى الخامسة والعشرين اليوبيل الفضى لتأسيسه، وفى سنة ١٣٠٥/١٩٢٦ش بالذكرى الخمسين والعيد الذهبى لتأسيسه، كما أقام أيضا احتفالات فى مناسبات أخرى ففى سنة ١٣٣٨/١٩٥٩ش احتفل بمناسبة مرور خمسين عاماً على عضوية اثنين من كبار الأعضاء فى الماسونية وكان أحدهما هادى طيب جى، وفى سنة ١٣٥٣/١٩٧٤ش أقام حفلاً كبيراً بمناسبة ذكرى تأسيس الماسونية فى بلاد الهند(٤٧).

هوامش الفصل الثامن

١- Gould, Freemasonry, Vol. IV, PP. ٥٠-٥١.

٢- «نواب» هى جمع تكسير لكلمة «نائب» وتعنى حاكم أو نائب السلطان (Viceroy) وكان هذا اللقب يستخدم فى بلاد الهند. وهذا اللقب كان يعد أيضاً لقباً فخرياً للحكام المسلمين فى بلاد الهند، انظر:

Edward Balfour, Encyclopaedia Asiatica, Vol ٦ (New Delhi, India, ١٩٨٢) P. ١٠٧٠ («article «Nawab).

٣- Percival Spear, The Oxford History of Modern India ١٧٤٠-١٩٥٥, ٢nd edition (Delhi, India, ١٩٨١), P. ٢٢. ff.,

ك. آنتونوڤا وآخرون، تاريخ نوين هند، ترجمه پرويز علوى (تهران، ١٣٦١ خورشيدى)، ص٢٣، وما بعدها.

٤- Gould, Freemasonry, Vol. IV, P. ٥١.

٥- المرجع السابق، الجزء الرابع، ص٥٢-٥١.

٦- Spear, Modern India, P. ٣٥.

٧- Gould, Freemasonry, Vol. IV, P. ٥٣.

٨- ك. آنتونوڤا وآخرون، تاريخ نوين هند، ص٢٤.

٩- Gould, Freemasonry, Vol. IV, P. ٥٤.

١٠- فى القرن الثامن عشر كان الأوروبيون يطلقون على هذه الولاية اسم (كارناتيك) (Carnatica) وهى الآن المنطقة التى تضم ولاية (Mysore) الهندية؛ انظر:

J. Burton-Page, «Karnatak», EI٢ Vol. IV (١٩٧٨), PP. ٦٦٦-٦٦٧; Anonymous, The Imperial Gazettear of India, new edition (New Delhi, India, n.d.), Vol. IX, PP. ٣٠١-٣٠٣.

١١- Gould, Freemasonry, Vol. IV, P. ٥٤.

١٢- المرجع السابق، الجزء الرابع، ص٦١.

١٣- نفس المرجع، الجزء الرابع، ص٧٨.

Gupta, Freemasonic Movement in India, PP. ٧-٨.

١٤- شوشترى، تحفة العالم، ص٢٥٩.

١٥- Anonymous, Gazetteer of India, Vol. XXIV, PP. ٢٥-٢٩.

١٦- آنتونوڤا وآخرون، تاريخ نوين هند، ص٤٩؛ وانظر أيضا:

Balfour, Encyclopadia Asiatica, Vol. II, P. ٥٨٣.

١٧- Burton-page, «Karatak», P. ٦٦٧.

١٨- Gould, Freemasonry, Vol. IV, P. ٦٧-٦٨.

١٩- المرجع السابق، الجزاء الرابع، ص٦٨-٦٩.

٢٠- Spear, Modern India, P. ١٠٠.

٢١- Gupta, Freemasonic Movement in India, P. ١٠.
٢٢- أبو طالب أصفهانى، مسير طالبى، ص٧.
٢٣- B.M. Sankhdher, «Mirza abu Talib Khan:His life and work», Islamic culture: An English Quarterly, XLIV, no ٤ (١٩٧٠), ٢٤٥-٤٨.
٢٤- Abu Talib [Isfahane] History of Asafu>d Daulah Nawab Wazir of Oudh Being a translation of Tafzihu>l Ghafilin»: A coutempocary record of events ,connected with his administrations, translated by W. Hoey (Lucknow, India ١٩٧٧), P. ٢٠.
٢٥- أبو طالب أصفهانى، مسير طالبى، ص٨-٩.
٢٦- المرجع السابق، ص١٠٥-١٠٦.
٢٧- نفس المرجع، ص٢٤٦.
٢٨- نفسه، ص١٥١.
٢٩- نفسه، ص١٥١-١٥٢؛ والإطلاع أكثر على أفكار ميرزا أبو طالب الأصفهانى، انظر: دكتر غلامحسين يوسفى، ديدارى اهل قلم: دربارهء بيست كتاب نثر فارسى (مشهد، ١٣٥٨ خورشيدى) جلد دوم، ص٧٢-٣٩.
٣٠- انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب.
٣١- Gould, Freemasonry, Vol. IV, PP. ٦٠, ٧٧-٧٢.
٣٢- Gupta, Freemasonic Movement in India, PP. ٧, ١٣.
٣٣- المرجع السابق، ص١٠-١١، ص ٥، ٦، ٥١، ٥٣ من القسم الثانى؛ ترقيم الصفحات فى هذا الكتاب تجدد ابتداء من الفصل الرابع ولذلك أعطيناه عنوان «القسم الثانى».
٣٤- رانين، فراموشخانه، جلديكم، ص ٢٩١-٢٩٩.
٣٥- انظر الفصل الخامس والسابع من هذا الكتاب.
٣٦- Stephen N. Hay and I. H. Qweshi, Sources of Indian. Tradition (N.Y ,.١٩٥٨), Vol. II, P. ١٠٩.
٣٧- Birton Martin, Jr., New India :١٨٨٥ British policy and the Emergence of Indian National Congress (Berkeley, California ,١٩٦٩), PP. ٤٧-٥٤, ٢٩١.
٣٨- المرجع السابق، ص١٢، ٤٨.
٣٩- Ashraf Faruqi «European Involvement in the A Ligarh Movement: The Role and Influence of European Facutly in the social and political Aspects of ,the Mohamedan Anglo-oriental college», Ph. D. dissertation, Duke University ١٩٧٨, P. ١٩٠.
٤٠- Martin, New India, PP. ٢٨١, ٢٩٢, ٢٩٤, ٣٠٦, ٣٢٥.
٤١- Ibid., P. ٣٠٦; Gupta, Freemasonic Movement in India, Part ٢, P. ٥.
٤٢- المرجع السابق، القسم الثانى، ص٦.
٤٣- Hay and Queshi, Indian Tradition, Vol. II, P. ١٠٩.
٤٤- سيد على خامنة اى (مترجم)، مسلما نان در نهضت آزادى هندوستان (تهران، ١٣٤٧

خورشيدى)، ص ٦٠ به بعد. والمؤلف الأصلى لهذا الكتاب هو عبد المنعم النمر واسم الكتاب بالعربية كفاح المسلمين فى تحرير الهند.

٤٥- Gupta, Freemasonic Movement in India, Preface and P. ١٧.

٤٦- Anonymous, ١٩٧١ List of Lodges, PP. ١٢٠-١٢١.

٤٧- Gupta, Freemasonic Movement in India, Part ٢, P. ٥٣.